الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الدلالات الرمزية للتوظيف الأسطوري في الشعر الجزائري المعاصر

The Symbolic Indications of Mythical Employment in Contemporary Algerian Poetry

Dr. Louakel ZERARKA
University Centre of Aflou, -Algeria-

د. زرارقة الوكال
المركز الجامعي بأفلو -الجزائر-
echihabe@yahoo.fr

ملخص

تعدُّ الأسطورة رافدا من روافد الحداثة في الشعر العربي المعاصر لما تحمله من مضامين عميقة لها صلة بحياة الإنسان والطّبيعة التي يعيش فيها وتحيط به وقد استطاعت منذ القديم أن تقيم علاقة وطيدة بينها وبين الفن عموما والشعر خصوصا. وتمثل بذلك منهلا للإنسان الأديب بما تحكيه في ثناياها عن دواخل الإنسان العميقة، وبما تشكّله من خلال ذلك من منبع للإلهام يستفز أعماق الأديب، ويموج بخوالجه الدفينة لتنفجر أدبا وشعرا.

وفي العصر الحديث دخل الشعر العربي مرحلة جديدة وكان من أهم لبناته ومعالمه توظيف الأسطورة توظيفا فنيا ودلاليا وعُدّ هذا الاستغلال والتوظيف ثورة على مستوى الرؤيا والتشكيل معا لما تحمله الأسطورة من زخم دلالي متنوع ومتعدد. وقد سعى الشعر الجزائري المعاصر من خلال التوظيف الأسطوري القومي والعالمي التعبير عن واقع الشعب الجزائري عبر مراحل كفاحه ومقاومته وبناء ذاته ووجوده مستهدفا من وراء ذلك دلالات رمزية أملتها تجربة الشاعر والموقف والفكر والمعتقد.

الكلمات الدالة: الأسطورين، الدلالات، التوظيف، الجزائري، المعاصر، الرمزي.

Abstract

The myth is a branch of modernity in modern Arabic poetry because it carries deep implications which are relevant to human life and the nature in which he lives. It has been able since ancient times to establish a close relationship between myth and art in general, and poetry in particular. Thus, it is a source of motivation for the man as an author, as he interprets the depth of the humanity, and penetrates the writer's inner part. In the modern era, Arab poetry entered a new phase by the use of the myth as an artistic and symbolic use. The use of this practice seems to be a promising revolution at the level of vision and format. The Algerian contemporary poetry sought through the mythical national and global employment to express the reality of the Algerian people through the stages of its struggle and resistance. It is also a means to build its existence and its projects, behind symbolic connotations dictated by the experience of the poet and also by his the position, his thought and his beliefs.

Keywords: *Legendary, signals, employment, Algerian, contemporary, symbolic.*

مقدمة

1ـ الأسطورة والشعر

أجمع الدّارسون للأسطورة والمتتبعون لها أنَّ علاقتها بالشعر قديمة واستندوا في ذلك على ما خلّفه الإرث الأدبي القديم من نتاج فنّي تمثَّل في الملاحم البابلية والإغريقية والصينية " فقد أجمع مؤرخو الصين على أنَّ معتقداتهم الأسطورية كانت المضمون الوحيد لأقدم صور التأليف الشعري عندهم."[1] وتبوّأت الأسطورة بذلك القالب الأول لدى الأمم في التعبير عن أحلامها وآمالها وسعيها إلى كشف الحقيقة ومعرفة المجهول " ومن هنا كانت الأسطورة منهل الإنسان الأديب بما تحكيه في ثناياها عن دواخل الإنسان العميقة ، وبما تشكّله من خلال ذلك من منبع للإلهام يستفز أعماق الأديب ، ويموج بخوالجه الدفينة لتنفجر أدبا وشعرا."[2] وهي " معين لا ينضب للأفكار المبدعة ، وللصور المبهجة ، وللمواضيع الممتعة ، وللاستعارات وللكنايات."[3]

كما أنَّ الآداب والفنون عرفت ثراء ونماء وخلودا بارتباطها بالأسطورة فقد "ظلّت تنهل من روح الأساطير عبر العصور التاريخية المختلفة، لأنّ الأسطورة في الواقع تُعَبِّر عن خيال الأمَّة وتطلعها نحو المثل الكوني الرائع."[4]ويُعدُّ الشعر في علاقته بالأسطورة السليل المباشر بها ووليدها فلم " يكن الأقدمون ينظرون إليها باعتبارها وهما أو خرافة ، بل بوصفها إحدى الحقائق الحدسية التي يرونها بعين خيالهم."[5] ولذلك فالعلاقة بينهما قديمة تكمن في اتصالهما بالتجربة الإنسانية ، فالشعر " تجربة روحية وجمالية عميقة تتصل بأعمق مكونات الأمَّة ومشاعرها ، وتستخدم من اللغة أقرب ألفاظها وكلماتها إلى الحس ، وأكثرها قدرة على الترميز والإشعاع بهذه المكونات."[6] كما أنَّ الأسطورة تُعدُّ "شكلا من أشكال التعبير العذري عن التجربة الإنسانية في مغامرتها الأولى مع الطبيعة والحياة."[7]

والأسطورة تتطابق مع الشعر في كونها مادة أدبية إلى جانب امتلاكهما لقدرة التأثير في النفوس المتأتي من الخيال الذي هو في حقيقته جوهر الأسطورة والشعر معا والذي يعمل على تمثل الغائب واستحضاره حقيقة في ذهن المتلقي ولذلك فإنَّ للشَّاعر " أثر بالغ الأهمية في استثمار عنصر الخيال الجامح بين الأسطورة والشعر وخلق القصيدة التي تكون مرتبطة بالمادة الأسطورية ارتباطا شديدا – أو في الأقل- ارتباطها بعالم شبه أسطوري اعتمادا على مخيلته."[8]

وتؤكِّدُ الدراسات المتتبعة لعلاقة الشعر بالأسطورة وتجانسهما أنَّهما يلتقيان في الوظيفة ، فوظيفة الشعر في بداياته الأولى كانت وظيفة دينية مثل الأسطورة ، فقد واكب الشعر المراسيم الدينية بترانيمه وابتهالاته فالشعر " بدأ ترتيلا دينيا ، وتطور إلى أراجيز في المناسبات الذاتية والاجتماعية ، وعندما أصبح للمجتمع قضية تحوّل إلى ملحمة ، ثمَّ إلى همٍّ قبلي، ووصل إلى موضوعة قومية وهكذا."[9] ، وأكَّدتْ هذه الدِّراسات والبحوث " أنَّ أقدم الأساطير كانت غناء دينيا ثمَّ صارت ملاحم شعرية بفعل تراجع العنصر الديني فيها."[10] وهذا ما تشهد عليه الملاحم اليونانية والبابلية التي شهدت التحول من الأسطوري إلى الشعري. وهكذا فإنَّ علاقة الأسطورة بالشعر هي علاقة مسايرة وتلاقي من حيث النشأة والوظيفة والشكل والتأثير.

أمّا في الشعر الجزائري المعاصر فإنَّ الشاعر الجزائري منذ النصف الثاني من القرن العشرين بدأ يواكب حركة التجديد والتغيير في فضاء الشعر مسايرا بذلك حركة الشعر العالمية والقومية ، وكان التوظيف الأسطوري في الشعر أحد هذه المعالم التجديدية إلى جانب معالم أخرى كالتوظيف الصوفي والديني والتاريخي ، وقد ساعد واقع الشعب الجزائري ومقاومته للاحتلال على هذا التضمين الأسطوري، بل إنَّ كثيرا من الأحداث ومواقف بعض الشخصيات الجزائرية البطولية تحوّلت إلى مضامين أسطورية لعظمتها ونبل مواقفها.

وبما أنّ الشعر الجزائري المعاصر هو امتداد للشعر العربي خاصة والعالمي عامة فإنَّه أراد من خلال التوظيف الأسطوري القومي والعالمي التعبير عن واقع الشعب الجزائري عبر مراحل كفاحه ومقاومته وبناء ذاته ووجوده مستهدفا من وراء ذلك دلالات رمزية أملتها تجربة الشاعر والموقف والفكر والمعتقد.

أ ـ الدلالات الرمزية لتوظيف الأسطورة القومية

سعى الشاعر الجزائري المعاصر من خلال لجوئه إلى توظيف الأسطورة إثراء الجانب الفني في شعره من جهة وتكثيف رؤيته والتعبير عن دلالات معيَّنة مُجَسِّدة لوجهة نظره في واقعه المعيش من جهة ثانية ، وكذا تماشيا مع حركية القصيدة العربية المعاصرة في تجدُّدِها والذي يُعَدُّ التوظيف الأسطوري أحد معالمه من جهة ثالثة. إلاّ أنَّ التوظيف الأسطوري في الشعر الجزائري المعاصر يُعَدُّ ضئيلا إذا ما قورن بالتوظيف الصوفي أو التاريخي ، وما هو موجود منه عبارة عن مقاطع شعرية أراد من خلالها الشاعر الجزائري أن يَتَّخِذ من الرمز الأسطوري شكلا تعبيريا " عن العالم والإنسان في علاقتهما وتحولاتهما المستمرة"[11] وأداة شعرية فذة تُعَبِّر عن واقع الذات الشاعرة وصراعها ضد القهر والتسلط ونضالها في سبيل تحقيق واقع الحرية و الانعتاق من كل القيود المكبلة لطموحاته والثورة عليها.

ومن الأساطير القومية المستمدة من التراث العربي القديم والتي كان لها حضور في المتن الجزائري المعاصر شخصية (**السندباد**) الحاضرة في الحكايات الأدبية والشعبية والتي تحمل في مضمونها أكثر من دلالة ومغزى إلى جانب شخصيات أسطورية أخرى حظيت باهتمام الشعراء العرب في المشرق والمغرب " فكلُّ شخصية من هذه الشخصيات لها تجربتها الخاصة الواقعية ، أو الممكنة ، ولكنَّها في الوقت نفسه تلخِّص وجها من وجوه التجربة الإنسانية الشاملة الممتدة ، فهذه

الشخصيات المحدودة العدد التي طفرت على سطح التاريخ الإنساني ليست إلاّ أدوات عبَّر بها الإنسان على مرِّ الزمن عن تجربته منذ بدايتها في حضن العقيدة وفي امتدادها عبْر ذلك إلى العرف والتقاليد. عبَّر بها عن تلك العلاقات التي تربطه بالله والكون وبنفسه ، وعمّا تضمنته هذه العلاقات من معاني الحياة والموت ، والخلود والفناء والشجاعة والخوف."[12]

ومن الشعراء الجزائريين الذين وظَّفوا شخصية (**السندباد**) الشاعر (**محمد بن مريومة**) ليُعَبِّر من خلالها عن واقعه ومأساته فيقول في أحد المقاطع من ديوانه (المغني الفقير) :

ولدي رفيق الشمس في قَطْعِ المدار

كالسندباد يهيم في عمق البحار

تدمى يداه من المحَّار

والجرح يفتح فاه ، يلتهم الحديد

لا يحمل الأحقاد ، في دمه العنيد

توق إلى فجر جديد.[13]

إنَّ توظيف شخصية (**السندباد**) في هذا المقطع حملت رؤيا الأمل في الخلاص من واقع جريح ، فإذا كانت الذات الشاعرة تعيش المأساة بكلِّ أبعادها فإنّها ترى في الجيل الجديد خلاصا من هذا الواقع المترنح على شفا الهاوية ، لأنّه جيل يحمل نور الأمل رغم الواقع المرِّ الذي يعيشه والضَّيَاع الذي يتماوجه مثله مثل (**السندباد**) الذي يعيش المغامرات البحرية الخطيرة إلاّ أنّها دائما تنتهي بعودته. ورغم العذابات والجراحات إلاّ أنّ جيل الخلاص في نظر الشاعر (**بن مريومة**) يبقى صابرا متحدِّيا مُصِرًّا على الوصول إلى مرفأ النجاة ومرسى الأمان وكلّه إنسانية وتسامح ، وأمل في بزوغ فجر جديد يزيح ظلمة الليل الطَّويل.

ومن ثمَّة فإنَّ الدلالة الرمزية في توظيف شخصية (**السندباد**) في هذا المقطع تأخذ بُعْدَ وصورة الضياع والبحث عن الأمل المفقود ، والإصرار على تحدِّي الواقع السلبي المعيش ، ووضع حَدٍّ للاستقرار الذي فرضته الذات القامعة المتسلطة ، كما أنّها تحمل صورة المعاناة الممزوجة بالأمل في ولادة فجر جديد.

ونجد دلالة الضياع بتوظيف أسطورة (**السندباد**) في شعر (**عثمان لوصيف**) الذي يجد في الضَّياع غواية ، وفي الإبحار عشقا وهواية ، وفي الهروب من واقعه حلاً لأزماته الذاتية والجماعية ، ما دامت مساعيه في التغيير كمن ينادي في أعاصير الرَّماد :

عاشقا كان ينادي

في أعاصير الرَّماد

ويعاني

من تباريح الحنان

خلِّه يلبس موج البحر والريح قناع

خلِّه يطوي المسافات

ويمضي في مداها

إنّه كالسندباد

يعشق البحر ويغويه الضَّياع[14]

وتأخذ شخصية (**السندباد**) في توظيفها الشعري الجزائري المعاصر دلالة الاغتراب وهذا ما تجليه هذه المقطوعة الشعرية للشاعر الجزائري (**عبد العالي رزاقي**) :

أُريدكِ أن تشعري باغترابك

فالسفن المبحرات مع الريح متعبة ،

والموانئ مغلقة ،

والشواطئ مهجورة ،

وعيون معاوية تترقبنا ، تتناقل أخبارنا،

وسيوف الغزاة ملطخة بدم الشهداء

هل الموج يخضع للريح؟

يسألني زمن تتداخل فيه المواقف

أخلع عن جسد جلد من يرتديني

أناديك باسمك..

فاقترب

ليس للرفض معنى بدونك..

يا امرأة – آه- أعيدها.[15]

فالشاعر في هذا المقطع لم يذكر اسم (**السندباد**) إلاّ أنَّ أجواءه الأسطورية حاضرة مخيِّمة على أجواء القصيدة ، ويتجلى إحساس الشاعر بالمأساة باديا من خلال مخاطبته للذات الأنثوية رمز الوطن الذي يعيش هو كذلك المأساة والاغتراب ، كما تتجلى لنا كذلك دلالات الإحباط والانكسار والمعاناة التي تعيشها الذات الشاعرة " لأنّه لا أمل في الخلاص من هذا الإحساس بالسفر والترحال ، فالموانئ مغلقة والسفن متعبة لا تملك القدرة على الإبحار بعد سكون الريّاح ، وفوق هذا وذاك فهي محاصرة بين جور الحكام وقهر الغزاة."[16] فالذات الشاعرة محبطة إلى درجة فقدان الأمل في الخلاص من هذا الزمن الكائن المحاصر بقوى التسلط والقمع الداخلية والخارجية ممّا جعل الشاعر يوظِّف أسطورة (**السندباد**) بشكل عكسي حيث شلّها من فعل الترحال الذي عُرِفَتْ به في حقيقتها الأسطورية ليُجَسِّد بذلك إحساسه بالتأزم والإحباط ، ويرثي واقعه المتألم الحزين فاقدا كلَّ أمل في الخلاص ، ومستسلما لما هو كائن بألم وحسرة التي تزداد شدَّةً عليه لأنّه واع بذاته ووجوده وانتمائه . وعنوان القصيدة يؤكِّد هذه الدلالة (**عودة السندباد**) وكأنَّ الشاعر يضع حدًّا لهذه الرحلة والمغامرة على عكس ما عرفت به هذه الأسطورة في دلالاتها التي تحمل دائما الأمل في العودة والتَّطلع للمعرفة والبحث عن المفاجأة. وإحساس الذات

الشاعرة بالإحباط هو في حقيقته " الرغبة التي ترافق إحساس الذات بالاختناق ، وانسداد الرؤيا، ومحدودية التّطلع ، فيراودها شعور بالتحليق بعيدا حيث اللاتناهي وهو المعادل الشعوري الذي بإمكانه احتضانها أواحتواء رؤياويتها ، ولا شك في أنَّ إحساساتها هذه منبثقة من تفاقم عذاباتها، وانطفاء شعلة الأمل ، واليأس من إمكانية تبرعم الحياة ثانية نتيجة انفصام الواقع وتأزمه على الدَّوام."[17]

ويجعل

وتأخذ أسطورة (**السندباد**) عند الشاعر الجزائري (**عقاب بلخير**) منعرجا دلاليا خاصا فهو يعيش الاغتراب ويرى في (**السندباد**) الحُلُم الذي سيخرجه من أزمته النفسية والفكرية ، فواقعه لم يوفر له أجواء السكينة والآمان ولذلك فهو يرى في الرحلة السندبادية الملاذ والملجأ ، والراحة والاطمئنان ، وتحقيق الذات والغاية ولو في عالم الأحلام ، كما أنَّه يرى فيه القرين والمثيل فكلاهما يبحث عن حلُم غائب :

أنْتَ كلُّ النَّاس في قلبي

في ظلال الشعر والريح

شراع بيننا

والبحر يغري بالسَّفر

كنت و الأدمع الملقاة حبَّات على وجه الحجر

قسما سوف يكون العمر ملاَّحا يجوب

الأرض كيف يُقطف من كلِّ الزَّهر.[18]

والشاعر (**عبد العالي رزاقي**) في موقف آخر مع شخصية (**السندباد**) يضع منها معادلا موضوعيا لتجربته الشعرية ، فذاته الشاعرة تريد أن تحقق وجودها الآني كما كانت أفعالا لا أن تبقى تجتر ما كانت عليه أقوالا ، فالحديث عن الماضي ومفاخره وانجازاته ومكتسباته لا يُغَيِّر من الحاضر شيئا :

لا ينبغ أن تهتفي باسمي

فقلبي لم يعد يرتاح للماضي

تعبت من الحكايا القديمة والأغاني

كان حبُّكِ رحلتي الأولى

وكنت السندباد[19]

وما يلاحظ على هذه المقطوعة استخدام الشاعر للفعل الماضي الناقص (كان – كنت) ممّا يحيلنا إلى دلالة التوقف عن رحلة الكشف وحب المغامرة ومن ثمّة الاستسلام للمعاناة . فحب الشاعر لوطنه كان هو رحلته الأولى ولكنّها لم تستمر لدخوله هو ووطنه في سجن الاغتراب ، كما أنَّ هذه الرحلة لم توصله إلى شاطئ الآمان والاطمئنان الذي كان يحلم به.

إلاّ أننا نلاحظ الشاعر في مقطع آخر يحاول تجاوز هذا الإحباط والانكسار ، ويكسِّر قضبان اليأس والقنوط ، والتحرر من وطأة الواقع الخانق الذي يُغِلُّه بقيوده باستمداد فعل التحدِّي والمقاومة من ذات ومصدر هويته وانتمائه:

الريح متعبة وسيف مولاك الأمير ملطّخ بدم الخوارج .. قاومي

فالنخل ذاكرة الصحاري لا القصور..

ووجهك الوضاء علّمني التّحدِّي،

وكنت ذاكرتي

وكان البحر وجه السندباد.[20]

وهكذا فإنّ الشاعر الجزائري المعاصر في توظيفه لأسطورة (**السندباد**) قَصَد منها أن تكون معادلا موضوعيا لذاته ولتجربته الشعرية للتعبير عن دلالات رمزية وفق رؤى معينة خاصة بكلِّ شاعر، إلاّ أنَّ القصائد السندبادية الجزائرية تتقاطع في نقاط مشتركة تصُبُّ جميعها في التعبير عن المعاناة النفسية والفكرية والإحساس بالاغتراب وعدم الاستقرار ، والبحث عن الخلاص وعن الحقيقة من خلال رحلة الهروب من واقع هش متآكل والكشف عن عالم قوي متماسك بأمانه وحريته.

ويستحضر الشاعر الجزائري المعاصر أسطورة (**شهريار** و(**شهرزاد**) ويتخذ منها معادلا موضوعيا لتكثيف تجربته الشعرية وتجلية رؤيته الفكرية وتنويع دلالاته الرمزية. وحملت شخصية " **شهريار**" في الشعر العربي دلالة الظلم والبطش والاستعلاء ، بينما حملت شخصية " **شهرزاد**" دلالة الصبر والصمود والتصدي.ومن الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين استدعوا هذه الأسطورة في أشعارهم الشاعر (**عبد الحليم مخالفة**) في قصيدته " **شهرزاد والليلة الثانية بعد الألف**" من ديوانه " **صحوة شهريار**" للدلالة على الألم مستغلاً الأجواء الحكائية لهذه الأسطورة ليسقط عليها مأساة وطنه وجراحاته وآلامه وكأن ألف ليلة وليلة لا تريد أن تبرح زمن الأمّة وتُصِرُّ على بقائها واستمراريتها، وتضاف الأحداث الدرامية العصيبة التي مرّ بها وطنه إلى هذا المتن الحكائي ، ليضاف ليل وطنه إلى الليالي الألفية التي مرّت بها أمّته وما زالت وللدلالة كذلك على استمرار الصراع بين التسلط والحرية . وقد استعرض الشاعر واقع وطنه السالف والحاضر ، فكان قبل المأساة حبّا وسعادة وأمنا :

يا أيُّها الملك السَّعيد

يا صاحب الرأي السديد

ما عدت أدري كيف أبتدئ الكلام

بل كيف أدخل قِصَّتي

وبأيِّ حرف سوف أَفْتَتِح القصيدْ

كنَّا،

وكان الحبُّ في وطني

يسيل جداولا

يمتدُّ في أعماقنا نبْعا وظلاً..

تتفتَّق الأحلام حوله نرجساً

عَطِراً ونِسْرِيناً وفلاً..

يتورّد الأمل الجميلُ

على شفاه صغارنا

يستلّمن أرواحنا يأسا وغلاً..

و ليتحول في حاضره إلى حقد وموت ورعب وخوف :

فالحب أخرسه الرَّدى

والزهر فارقه النَّدى

والروض غطّاه الجليد

وطني تقاسمه بنوه

فذبحوه من الوريد إلى الوريد[21]

والذات الشاعرة في خضم تجرعها لمرارة المأساة وحدّتها تشخص أسبابها :

يا أيّها الملك السعيد..

وطني جريمته الجمال

وطني خطيئته الطَّهارةُ

وسْطَ عُشَّاق الخنا والانحلال

وطني جريرته التَّفرّد والتّمرد

حين ذلَّ الكلُّ وانعدم الرِّجالْ[22]

فالأجواء الحكائية الدرامية التي تسردها "**شهرزاد**" هي في حقيقتها أجواء الذات الشاعرة المتألمة من حاضرها المهزوم والصابرة عليه والمتصدّية لارتداداته وهزّاته ، فقد اتخذ الشاعر من "**شهرزاد**" قناعا تستّر وراءه ليعبّر عن ذاته وموقفه ورؤيته تجاه ما يعيشه ويحياه بعيدا عن التحدث بضمير المتكلم :

والليلة الكبرى انقضت

ثمَّ انقضى من بعدها

سبعون شهرا..

والغادة الحسناء لا زالت تصوّر

حدّة المأساة شعرا[23]

وتبقى الذات الشاعرة مرتقبة فجرا بعد ليل مأساتها الطويل بجراحه وأساه ونواحه وإنْ طال مدى الترقب والانتظار:

لا الفجر أدرك شهرزاد

ولا بلادي أدركت

بعد الليالي فجرا.[24]

بد الدلالات الرمزية لتوظيف الأسطورة الإنسانية

وإلى جانب توظيف الشعر الجزائري المعاصر للأسطورة القومية فإنّه عمل على توظيف واستخدام الأسطورة العالمية لما تحمله من كثافة دلالية ، ولتكون معادلا موضوعيا لذاته ، ومن أهم هذه الأساطير التي لقيت حضورا في المتن الشعري الجزائري المعاصر أسطورة (**سيزيف**) الإغريقية والتي حملت في جوهرها دلالات الصمود والتحدي والمقاومة رغم المعاناة لتعبر بذلك عن حقيقة وطبيعة الوجود الإنساني. فهي قصة تعبِّر عن" العذاب الأبدي وكفاح الإنسان اليائس من أجل الوصول إلى قمَّة رغباته ، فهو يعرف أنَّ الحياة عبث لكنَّه يعمل حتى النهاية."[25]

ومن الشعراء الجزائريين الذين وظَّفوا أسطورة (**سيزيف**) الشاعر (**حمري بحري**) للدلالة على التمرد على الواقع وعدم الاستسلام له مع الحُلم بالخلاص، فسيزيفية (**حمري بحري**) تمزج بين فعل الرفض وفعل الحلم بالخلاص ، فهي سيزيفية فاعلة متحركة غير جامدة ، وغير موالية لواقعها تنشد التحرر ولو بخلق واقع حالم يفتح له متنفّسا يستلذّ فيه طعم الحرية والانعتاق بعيدا عن واقعه المادي المتردِّي الملوث بالقمع والاضطهاد، فسيزيف (**حمري بحري**) يحيا مجبرا في وسط متسلِّط ورغم ذلك لم يستسلم له بل هو يرضع من ثدي الحياة:

سيزيف يحيا في نزيف الحجر

يأكل خبزا يابسا

يسمع صوتا يابسا

يصعد دربا

ينزل دربا

سيزيف يحيا في نزيف الحجر

تفتح عيناه ، ويمشي صامتا

بين الصعود والنزول

يحلم بالحبِّ وأشياء كثيرة

يَزُفُّ للفصول

صورة حقل عاشق

يرضع ثدي المطر[26]

ويوظِّف الشاعر الجزائري (**عز الدِّين ميهوبي**) أسطورة طائر **العنقاء** ليتجاوز آلام الواقع ويفترش بساط الأمل في انتظار عودة المخلص الذي سيُبْعَث لتخليص المعذبين والمهمومين والحائرين والغارقين في غبنهم، مستلهما هذا الأمل من واقع التاريخ ، فكلَّما كثر الضغط حدث الانفجار والانفراج. والشاعر هنا يتحدث عن الشهيد الذي يموت ليُبعث الآخرون ولتستمر دورة الحياة بفطرتها وحقيقتها الأصلية . وأنَّ منبع

الشهادة لا يجف ولا ينبض فهو دائم العطاء حيٌّ لا يموت فهو دائم التوالد والانبعاث مثل طائر العنقاء :

أنا آت

وصوتي في السّماوات

أغني للتراب الحُرِّ

لأفراحي وآياتي

وأطلع مثل العنقا..

رمادا دون أصوات[27]

ويتأكّد لنا هذا الأمل في الانبعاث مرَّة أخرى لدى الذَّات الشاعرة رغم الآلام والمآسي التي مرَّتْ بها وطال أمدها ، وأنَّ الجراح مهما أوجعت فسيحين يوما شفاؤها ، وأنَّ الأحزان مهما امتدَّت فإنَّ خاتمتها أفراح ومسرَّات ، وأنَّ الشعوب مها عضَّتها النوائب، ونالت منها المصائب ، فإنّها لن تموت :

آت من الأوراس يتبعني هوى وهواك يا ابن الأكـــرمين فضول

وحدي كما العنقاء أُبعثُ ماردا ويشقّ ذاكرةَ الرَّمـــاد حـلول

آتٍ وبي نَزْفُ توزع أضلعي وجزائري فلٌّ بها .. ونصـــول

الجرح أكبر من شفاهي فاقرأوا وجهي ..فوجه المتعبين قـــؤول

دعها الجزائر ..تستظِلُّ بدفئها إنَّ الجـــزائر جنَّة ونخيـــل

قد تحجب الأقدار عمرا مزهرا لكن أعـمار الشُّعـوب تطـول

آتٍ جنوبيّ الهـــوى فكأنَّني.. طير .. وطيـر العاشقين رسـول[28]

وهذا الأمل الذي تعبِّر عنه الذات الشاعرة والنزعة الانبعاثية التي تتميَّز بها تأتي في خضمِّ معاناة جهنّمية ومأساة وطنية أتت على الأخضر واليابس وأفقدت كلَّ أمل في الحلِّ والانفراج وكادت أن تعصف بالبلاد والعباد ولكنَّ الذات الشاعرة لم تيأس رغم التعب وقوافل الموت والجنائز واحتراق أشرعة الأمل فوردة أمله لم تحترق رغم الانكسار :

أنا طائر المتعبين بأحلامهم..

ليس لي أجنحة

وطني ساحة للجنازات والأضرحهْ

أنا طائر أتعبته النجوم فماتْ.

أتنفّس من رئة الصَّمت والكلماتْ

فتلبسُني المقبرهْ

وتحرق أشرعتي المجمرهْ

هل أنا وردة من رحيق المساء

أم الوردة انكسرت في نهايات صمتي

ولم تحترق؟[29]

وما يؤكِّد لنا هذه الدلالة الرمزية يقين الشاعر في تجاوز المحن والمواجع ، لأنّ تضحيات الشهداء هي التي تُبْقي الوطن شامخا ، وهي مركب النجاة ، ومطلع الشمس التي ستضيء ربوع الوطن وقلوب أبنائه المخلصين :

لا تيأسن

ستطلع رغم المواجع

شمس الوطن

هم الطَّالعون من الموت في زمن

شكله خمرة

لونه خمرة

طعمه حسرة

. . .

فلا تيأسن

ستبقى الجزائر شامخة مثلكم

رغم أنف الفتن

وسيكبر فينا الوطن.[30]

ونجد كذلك دلالة مقاومة الطغيان وعدم الاستسلام للتسلط في شعر (**أبو القاسم خمار**) في توظيفه لأسطورة (**سيزيف**) حيث تأخذ عنده بعدا عالميا إنسانيا من خلال مواجهة الشُّعوب المظلومة لقوى الطغيان والاستكبار العالمي فـ (**سيزيف**) (**أبو القاسم خمّار**) لم يذعن لقدره كما هو في طبيعة الأسطورة اليونانية بل هو (**سيزيف**) المقاوم الرافض لحمل صخرة الإله الأمريكي ، إنَّه الشعب الفيتنامي المقاوم الذي قاوم بإرادته وإيمانه همجية المتسلِّط الأمريكي:

لن يرفع (**سيزيف**) الصَّخرة

لن تلمع في سهم ريشة

أشباح الهندي الأحمر

ذكرى مرة

تتفجَّر[31]

وتتكرر الدلالة الرمزية في الإحساس بالمعاناة والاغتراب ، والشعور بالإحباط في عدم تحقيق الحُلم والوصول إلى معايشة الأمل المفقود مع رمز أسطوري آخر هو أسطورة (**فينوس**) إلهة الحُبِّ والجمال وهذا مع الشاعر الجزائري (**الأخضر فلوس**) في قصيدته " مشانق الأعراف" حيث استدعى الرمز الأسطوري (**فينوس**) ليجسِّد لنا تجربته الشعرية ويكسبها زخما دلاليا معبِّرا عن موقفه الحاضر ، فهو يريد من خلال هذا الاستدعاء التعبير عن قيمة إنسانية افتقدها في حاضره وعن حلم لم يستطع تحقيقه ليتوقف عن رحلة البحث الشاقة مكتفيا باستعادة حُلُمه الميت لعلَّه يجد فيه نفسه فيَسْعَد بوجوده وبذاته

كما سعدت إلهة الحبِّ:

دربي طويل..

تحيا به جِنِّيَّةُ الحلم القتيل

وتحمل الآمال في أهدابها ،

وترشقها فوق الطُّلول ،

لتُعيد حلما ميِّتا في عهد (فينوس)

التي عشقت وحطَّمت الصُّخورَ على الصُّخُور.[32]

ويستوقفنا الشاعر (عز الدين ميهوبي) مع أسطورة طائر (الفنيق) ليعبر من خلالها عن تجربته وعن مأساته في وطنه الذي لم يبق فيه شيء إلاّ انتظار الموت بنبرة حزينة تستسلم فيها الذات الشاعرة لقدرها ، وتقرُّ عن عجزها في بعث الحياة وبثِّ أمل الخلاص من الكارثة والمأساة ، فواقعها محاصر بالموت المادي والمعنوي فلا ماء ولا حبر ولا دم أي لا حياة ولا علم ولا تضحية ، ومن ثمّة لا غاية ولا هدف إلاّ انتظار الموت وانتظار أمل البعث بعد الموت كطائر (الفنيق) الذي ينتظر زمن موته فيحترق ليولد من رماده طائر (فينيق) جديد إلى حياة جديدة:

" يا قافلتي..

هل قطرة ماء تغسلني إنْ متُّ ؟

هل قطرة حبر أتركُ للناس وصيّه

هل قطرة دمْ؟

لا شيء

وهذا النهر يجيء جنائز سوداء

والشاعر يفتح للآتين مقابره الأولى..

يتوسّد كالفنيق رماد العمر

ويفترش الكلمات

ويلتحف الأسماء[33]

ومن خلال ما سبق نصل إلى أنَّ الشاعر الجزائري وعى أهمية توظيف الأسطورة في الشعر لأنها تضمن له العمق الذي يريده لتجربته ، إذ تساعده على ربط الماضي بالحاضر والتوحيد بين تجربته الذاتية وتجربته الاجتماعية وتحقق له ما يسعى إليه من دلالات رمزية معبِّرة عن حقيقة واقعه بأفراحه وأحزانه ، وآماله وآلامه ، وطموحاته وغاياته.

الهوامش

1-بلحاج كاملي ، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة ، دمشق ، 2004م ، ص.32.

2-جيرودية فاطمة خالد ، الأسطورة في شعر الدكتور نذير العظمة ، في الموقف الأدبي ، العددان 472-471 ، يوليو – أغسطس 2010م ، ص.37.

3-ك. ك راثقين ، الأسطورة ، ترجمة جعفر صادق الخليلي ، منشورات عويدات، بيروت – باريس ، 1981م ، ط1 ، ص75.

4-مشوح وليد، دراسات في الشعر العربي الحديث، ص.223.

5-أحمد محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ص.228.

6-بلحاج كاملي، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة ، ص.32.

7-المرجع نفسه.

8-النعيمي أحمد إسماعيل ، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام ، سينا للنشر، القاهرة ، 1995م ، ط1 ، ص. 13.

9-مشوح وليد ، دراسات في الشعر العربي الحديث ، ص 226.

10-بلحاج كاملي ، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة، ص.30.

11-فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل – مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة- ، ص. 106.

12-إسماعيل عز الدين ، الشعر العربي المعاصر – قضاياه ومظاهره- ، ص. 204.

13-بن مريومة محمد ، المغني الفقير، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1985م، ص. 89.

14-لوصيف عثمان ، أعراس الملح ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1988م ، ص.27.

15-رزاقي عبد العالي ، الحب في درجة الصفر، ش و ن ت ،1977م ، ص. 131.

16-مزدور حسن ،توظيف المضمون الأسطوري في الشعر الجزائري، في التبيين،ع24 /2005م ،ص. 95.

17-فيدوح عبد القادر، الرؤيا والتأويل – مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة-، ص. 115.

18-بلخير عقاب ، السفر في كلمات ، منشورات إبداع الجزائر ،1992م ، ص. 32.

19-رزاقي عبد العالي ، الحب في درجة الصفر ، ص. 14.

20- المرجع نفسه، ص. 144.

21-مخالفة عبد الحليم ، ديوان صحوة شهريار ، منشورات السائحي ، الجزائر ، 2007م، ط1 ، ص.28-29-30.

22-المصدر نفسه ، ص.34.

23-المصدر نفسه ، ص.33-34.

24-مخالفة عبد الحليم ، ديوان صحوة شهريار ، ص.35.

25-المساوي عبد السلام ، البنيات الدَّالة في شعر أمل دنقل ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ، 1994م ، ص.139.

26-بحري حمري ، ما ذنب المسمار يا خشبة ، ش. و. ن. ت ، الجزائر ، 1982م ، ص. 103 -104.

27-ميهوبي عز الدين ، الشمس والجلاد ، دار الأصالة ، سطيف ، الجزائر ، 1988م ، ط1 ، ص. 11.

28-ميهوبي عز الدين ،عولمة الحب عولمة النار،دار أصالة سطيف،الجزائر ، 2002م ، ط1 ، ص. 78-79.

29-ميهوبي عز الدين ،عولمة الحب عولمة النار،ص. 42.

30-ميهوبي عزالدين ، اللعنة والغفران ، مطبعة هومة الجزائر ، 1997م ، ص.76-77.

31-خمَّار محمد أبو القاسم ، أوراق ، ش. و. ن. ت ، الجزائر ، 1982م ، ط2 ،ص. 34.

32-فلوس الأخضر ، مشانق الأعراف، مجلة آمال ، ج3 ،ع13 ، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر ، ص37.

33-ميهوبي عز الدين ،عولمة الحب عولمة النار ، دار الأصالة ، سطيف، الجزائر ،2001م ، ص.10.